هل "التحليل" مفهوم شامل للمجالات كافة؟

غسان مراد

يتضمّن هذا العدد العديد من المفاهيم المتداخلة، ولكن جميعها يدور في حيّز محدّد من اللغة، يتمثّل في النص في تجليّات مختلفة، بدءًا بفهم الحالة النفسيّة التي يعيشها الناس حاليًّا لمواجهة جائحة "كوفيد 19" والتغيّرات التي حصلت على الصعد كافة، بهدف إنتاج سرديّة تتعلّق بالواقع وتتطرّق إلى استشارات العلاج النفسي افتراضيًا، مرورًا بفهم "الحكايات الشعبية ودورها في بناء ثقافة وطنية عربية" وأهميّتها في الحفاظ على الهوية القومية، وصولًا إلى الموضوع الذي يطرح تساؤلات حول مسؤولية الإنسان المعاصر من خلال علاقته بالحقيقة، بالارتكاز على دراسة "مذكرات آن إلين كليش" للنبي "يونان".

ويتناول العدد موضوعات مرتبطة بالحياة السياسية للرئيس رياض الصلح، من خلال دراسة ثلاث سير ذاتية مختلفة، لنرى ما إذا كانت سيرته الذاتية علامة من علامات العصر، وأخرى مرتبطة بالمنهج الذي ينبغي الاعتماد عليه لتعليم "اللغة الفرنسية لأهداف محدّدة" وتعلّمها، انطلاقًا من نموذج لغة السياحة.

ويتطرق أيضًا إلى جودة الكتاب المدرسيّ اللبناني للصف الأساس الثالث، وجودة الكتابة الإعلاميّة ومشاكلها والأخطاء التي يقع فيها الإعلام المكتوب ومحاولة طرح حلول لها، وأخيرًا ربط اللغة بالمسار الرقمي، من خلال عرض للتطبيقات المعلوماتيّة، كالتصريف الآلي للأفعال ما يساعد في حوسبة اللغة العربية.

كل الطروحات القائمة في هذا العدد، انطلاقًا من التحليل النفسي أو اللغة العلميّة والإعلاميّة والحكواتيّة الشعبيّة، وصولًا إلى التصريف الآلي للأفعال، ترتكز على جامع مشترك لكل هذه المواضيع المختلفة، وهو التحليل كمفهوم للمجالات المختلفة كافة.

هنا، لن نطرح سؤال: ماذا يعني التحليل في كل مجال؟ بل سنسأل: ما المادة التي نحلّلها في المجالات كافة؟ للإجابة عن هذا السؤال، نجد أنّنا دائمًا ما نحلّل نصًّا معيّنًا للبحث عن المعنى. وانطلاقًا من ذلك، نبحث عن تفسير لحلّ مسألة مادة التحليل، ومهما كانت المادة الخاضعة للتحليل، فهي تتبع المعنى العام للمفردة "حلّل". وبحسب معجم المعاني، "حلَّلَ الشيءَ: رَجَعَهُ إلى عناصره". الشيء هنا هو اللغة. وفي أغلب الأحيان، لا تكون هي الهدف المباشر للتحليل، سواء اللغة المكتوبة أو الشفهية، ولكنها تشكل الوسيلة التي يُربط من خلالها الدماغ البشري بين المُحلِّل والمحَلَّل، المُلاحِظ والملاحَظ، المُراقِب والمراقَب... مهما كانت طبيعة المادة.

لا بد من العودة دائمًا للبحث عن المعنى؛ معنى الإنسان، فلا يمكن "الوصول" إلى الدماغ إلا من خلال تحليل الإشارات على أنواعها. يحدث ذلك في الفلسفة، بهدف فهم الكائن عن طريق تقسيمه إلى مكوناته، وفي التحليل النفسي، بهدف تحليل لغة المتكلّم، وفي الجغرافيا، بهدف التحليل والقياس.
وفي السياسة، يكون الهدف من التحليل هو فهم الواقع. وفي علم الاقتصاد، يتم تحديد استراتيجيات البيع والشراء ونقاط القوة والضعف. وفي مجال التجسّس والمراقبة، يجري تحليل البيانات والمعلومات التي تصبح بدورها بيانات للمحلّل. أما في الرياضيات، فالهدف من التحليل هو فهم مجال حسابي للتفاضل والتكامل. في الكيمياء، يكون التركيز على تحديد مكوّنات المنتج. في علم الأحياء، يمارس التحليل الجيني للكائنات. في علم الحاسوب، يتمّ تحليل الموضوع لوضع تصميم البرنامج النهائي. في القواعد اللغويّة، يجري تحليل التركيب النحوي والصرفي للجملة وأجزاء الكلام والتحليل الدلالي للنص لتحديد المعنى. في الأدب، يكون الارتكاز على طرح طُرق لفهم وتفسير النصوص وكل ما يحيط بها لغويًا ونفسيًا واجتماعيًا... في الفنون، يكون الهدف تحليل التكوين الغرافيكي وربطه بالثقافة بشكل عام. في الموسيقى، نلجأ إلى تحليل اللحن والتناسق والإيقاع وغيرها. في لعبة الشطرنج، نعمل على إعادة الخطوات وتحليلها والوقوف عليها لفهم المتغيرات التي أدت إلى "المات" والبحث عن النقلة الثاقبة...

إذًا، نستنتج أنّ لكلّ مجال تحليلًا خاصًا به. ومهما كان هذا المجال، تبقى الإشارات هي الأساس، ويبقى البحث عن المعنى هو الهدف. هذا هو هدف هذا العدد. ولا ننسى أن مناهج التحليل تلجأ إلى ما يسمى "ما فوق التحليل"، وترتكز على مفاهيم التحليل المباشرة للوصول إلى التحليل النهائي لمادة معينة.
هذه الإشارات تتعلّق بمفهوم الممارسات اللغويّة التي تختلف بشكل أساسيّ عن المقاربات الشكلانيّة للّغة توصيفًا وخارج السياق المتداول. وتحدّد هذه الفكرة استخدامات اللغة من حيث أنّها دائمًا ما توضع في سياقها ويتمّ تحديد موقعها فيزيائيًّا ومؤسساتيًّا وتاريخيًّا، وتتيح لنا اعتبار أن القدرات اللغوية لا ترتبط بتركيب الأشكال اللغويّة فحسب (تعمل اللغة كنظام للإشارات)، ولكن بتطوير المعاني أيضًا.

لذا، فإنّ الحديث عن الممارسات اللغوية يعني تحليل طريقة عمل اللغة في السياق الذي ترد فيه، وطرح الأسئلة، والتشكيك في إنتاج المعنى والتأثيرات الناتجة منه. وأخيرًا، طرح السؤال حول علاقة المتكلّم بالموضوع واللّغة والوضع الذي يشارك فيه بصفته منتِجًا للموضوع وكاتبًا له. تُبنى الممارسات اللغوية في البيئات الاجتماعية التي يتعرّف فيها الفرد إلى نفسه كعضو، وفي سياق التفاعل الاجتماعي الذي يتم نشرها فيه.

في المحصّلة من الممكن القول، إنّ إنشاء موضوع التحليل في أغلب الأحيان يتمّ بشكل موازٍ للمنهجية التي تتيح فهمه.